قصة مترجمة ☐
من اللغة الآسامية

قصة: بيتُ الرغبة

الكاتبة: نجمة مُخرجي *
المترجم: أبو سعيد أنصاري **

وأخيرًا، وقعت أعينُ الناس على المستنقع أيضًا، فتقدّموا إلى الحكومة مطالبين به، فقبلت طلبهم ومنحتهم الإذن بالاستيلاء عليه. وفي يومٍ من الأيام، تجمّع الناس تحت قيادة الضابط، فألقى عليهم نظرةً حادّة بعينين محمرّتين، وقال بصوتٍ جاف:

"طوّقوا المستنقع."

وما إن سمع الناس كلماته الحازمة حتى تملّكهم شعورٌ مختلط من الفرح والخوف، ولم تمضِ لحظاتٌ حتى اندفع كلُّ واحدٍ منهم يحمل أعمدةً من الخيزران بأحجامٍ مختلفة، يغرسها في الأرض على عجل. وسرعان ما تم تحديد الحدود: هذا الجزء لي، وذاك لك.

أمّا نصيب الموظف فقد اختاروا له قطعةً ذات هيئةٍ أنيقة.

---

* الأستاذة المتقاعدة بجامعة كوتون في مدينة غواهاتي بولاية آسام.

** باحث الدكتوراه في مركز الدراسات العربية والإفريقية، بجامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي.

في البداية، عندما علم طيور اللقلق بالأمر، شعروا باضطرابٍ شديد، حتى إنهم فقدوا شهيّتهم تمامًا. وكانت الأعشاش على شجرة الكَدَم (شجرة كبيرة ذات أزهار فريدة) عند حافة المستنقع غارقةً في سكونٍ لافت؛ فلا أثر للأطفال ولا للأمهات، وكان الآباء وحدهم يهبطون ويرفرفون بأجنحتهم. وفي الجوار، كانت الأسماك تسبح بايقاعٍ يتراوح بين الحيوية والتباطؤ، غير عابئةٍ بما يجري حولها.

وفي الليل اجتمعوا للتشاور. قال العمّ المسنّ (اللقلق العجوز) بصوتٍ متهدّج موجّهًا حديثه إلى الصغار:

"هل يُعقل أن نغادر هذا المكان بهذه البساطة؟ لقد عشنا هنا ثلاثة أجيال. هذا المستنقع هو مصدر رزقنا ومأوانا. لا يجوز للإنسان أن يتصرّف وفق أهوائه. فالأرض أمّنا، وهي لنا أيضًا، وبها صلةٌ لا تنقطع."

أيّده ابن أخيه المراهق قائلًا:

"العمّ على حق. لا يمكن احتمال هذا الظلم."

وقالت الفتاة بحزم:

"ليس من العدل أن نبقى صامتين يا عمّ."

في الطرف الآخر من المستنقع، كانت تقيم امرأةٌ مسنّة، تُعرَف بنشاطها الاجتماعي وبدفاعها عن المظلومين والمهمّشين.

وفي الصباح قصدها بعضهم بتردّد ليعرضوا عليها قضيتهم، لكنها ابتسمت ابتسامةً مقتضبة وقالت ببرود؛

"خدماتي مخصّصة للبشر فقط، لا لكم."

فعادوا من عندها بخطواتٍ مثقلة. كانت ملامح الألم والاستياء واليأس واضحةً على وجوههم، وبدا كأنهم مجموعة من الكائنات العاجزة المهجورة عند حافة العالم، يكفي أن يدفعها أحدٌ قليلًا حتى تتهاوى خارجه.

كان بعض الصغار يتجوّلون قرب المستنقع، فلما رأوا ممثليهم يعودون أسرعوا نحوهم، لكن لم ينطق أحدٌ بكلمة. كانوا جميعًا قلقين جدًا.

ساد جوٌّ من الحزن. رفرف العمّ بجناحيه واتجه إلى شجرة الكَدَم دون أن يقول شيئًا. قبل أيامٍ قليلة فقط كان قد بنى عشه من أغصان أشجار المانجو والجاك فروت. كان العش جميلَ الهيئة، مستديرًا عميقًا، وكان ينام فيه ليلًا نومًا هادئًا.

أغمض العمّ عينيه, لكنه ارتجف فجأة. فقد ظهر أمام عينيه وجه الضابط: بزّته الكاكية (لون مائل الى الصفرة للزي العسكري), قبعته الرسمية, والمسدس في جيب سرواله. وكانت عيدان الخيزران بهولوكا (خيزران ضخم الساق متين البنية) والخيزران جاتي (خيزران نحيل الساق دقيق التكوين), كأنّ أحدًا يطعن المستنقع بالرماح. وانفجرت الدماء من جسده سيلًا, وبدا هو وأسرته غارقين فيها, وشعر أن أحدًا يستعدّ لقطع شجرة الكَدَم.

ارتجف بشدّة, فطار فورًا إلى شجرة التفاح القريبة. ومن هناك كان يستطيع أن يرى المدينة البعيدة.

كيف تغيّر هذا المكان أمام عينيه! لقد ترعرع هنا منذ نعومة أظفاره, وإن لم يكن مولده في هذه البقعة. في أطراف القرية البعيدة, كانت أشجار السيمولو الوارفة (شجرة القطن الحريري) تحتضن بيوتهم وتفيء عليها بظلالها. وكانت التلال على مرمى البصر, وعلى سفوحها تنبسط مساحات شاسعة من المياه الراكدة والمستنقعات, وتتناثر في الجوار غاباتٌ صغيرة كأنها بقع خضراء نابضة بالحياة.

وكان القرويون يأتون كثيرًا لجمع الحطب؛ أحيانًا يجمعون الأغصان اليابسة المتساقطة, وأحيانًا يأتون في جماعاتٍ ليقطعوا الأشجار الكبيرة. وكان ذلك يبدو لهم أشبه بموسم احتفالٍ تتعالى فيه الضحكات وتفيض أجواء البهجة والمرح. وهكذا اجتثّ الناس أشجار السيمولو من ذلك المكان حتى لم يُبقوا لها أثرًا.

وعندما ضاقت بهم الحال, جاءت به أمّه إلى هذا المكان وهو لا يزال رضيعًا في حجرها, ثم وُلد إخوته الآخرون هنا. ومنذ أن وعى, وهو يرى أنّ هذا المكان زاخرٌ بالطعام؛ فالأسماك كثيرة, وكذلك الحيّات والضفادع. غير أن ذلك كان منذ زمنٍ بعيد. أمّا الآن فلم يعد كما كان من قبل, ومع ذلك فالمكان صالحٌ للعيش؛ لا خوف من السكن ولا قلق من الطعام, ولعل هذا ما جعل مودّتهم له راسخةً في القلوب.

ومع مرور الأعوام بدأ شعر رأس العمّ يتساقط, وما تبقّى منه أصبح خشنًا. ولم يعد شابًا, فقد مرّت ثماني سنوات. وكانت زوجته قد توفيت منذ زمنٍ بعيد. مسكينة! لم تمت بسبب العمر, بل بسبب الحزن, بعد فقدان ابنهما الوحيد.

وبينما كان يحاول أن يبدّد تلك الذكريات الثقيلة, ألقى نظرةً إلى الأسفل, فرأى مشهدًا من الغربان حول جثة قطة. كانت هناك الغربان فاتي(غراب صغير مألوف) والغربان دورا (غراب بري ضخم), وكانت الغلبة للغربان دورا, لذلك لم تجرؤ غربان فاتي على الاقتراب. وعندما كانت الغربان دورا منشغلة بتمزيق الجثة, كانت الغربان فاتي تتقدّم قليلًا, لكنها تتراجع فور أن ترفع غربان دورا رؤوسها.

هزّ العمّ جسده مرّةً, فقد أدرك أن الجلوس هكذا لن يغيّر شيئًا. يجب أن يفعل شيئًا. نظر حوله واستعدّ للطيران, ثم بدأ يطير نحو الجنوب. كان يطير قليلًا ثم يتوقف, ثم يطير مرةً أخرى, لأنه لم يكن معتادًا على الطيران لمسافاتٍ طويلة. وعندما وصل إلى الحيّ الحكومي حيث يعيش الضابط, هبط إلى الأرض. استراح قليلًا عند المنعطف الصغير. كان قلبه يخفق بسرعة, فحاول أن يهدأ ويأخذ أنفاسه, لكن الخوف ما يزال يلاحقه كظلٍّ ثقيل. تقدّم ببطء, وعند المدخل توقّف. كانت البوابة مفتوحة, وبجانبها سيارة. ألقى نظرةً حذرة حوله ثم توجّه نحو الفناء. عند عتبة الباب كانت القطة الأليفة السمينة نائمة, وعندما رأته قفزت فجأة, وكأنها

تحاول منعه من الدخول، وراحت تنظر إلى جسده الغريب وإلى الانتفاخ قرب حلقه.

وفي تلك اللحظة خرج الضابط من غرفة الجلوس بخطواتٍ سريعة، وكان يستعدّ للذهاب إلى عمله، وكانت زوجته تسير خلفه حاملةً حقيبة الملفات.

انحنى برأسه باحترام وقال بصوتٍ خافت:

"ماذا سيحدث لنا؟ إلى أين سنذهب يا سيدي؟ وهل يمكننا أن نغادر حتى لو أردنا؟ لقد أُحيط المستنقع بسياج، ويُقال إن شجرة الكَدَم ستُقطع أيضًا."

قال الضابط ببرودٍ قاطع:

"بالتأكيد ستُقطع."

قال: "إلى أين سنذهب إذن؟"

قال الضابط بغضب:

"كيف لي أن أعرف إلى أين ستذهبون؟ سيُردم المستنقع بترابٍ من التلال، وستُقطع الأشجار، وسيُبنى هنا بيتٌ جميل. سأعيش فيه بسعادة مع زوجتي وأطفالي، وسأربّي الكلاب والقطط."

قال العمّ بصوتٍ ضعيف يكاد لا يُسمع:

"وماذا عنا نحن؟"

فصرخ الضابط: "كيف تجرؤ على المجادلة؟ صفعةٌ واحدة تكفي لتحطيم وجهك! أتظنّون أني أفكّر فيكم؟ هل تدرون كم من الجهد بذلت للحصول على هذه الأرض؟ يا كلاب، ماذا تفهمون أنتم؟ اذهبوا فورًا، وإلا..."

ثم أخرج المسدس من جيبه. كان غاضبًا، لكن غضبه لم يُضعف من رباطة جأشه. فعندما تكون الأمور تحت السيطرة، وعندما يمكن التغلّب على الخصم بسهولة، يميل الإنسان إلى إظهار شجاعةٍ مصطنعة، وكأن الضابط كان يحاول أن يستعرض مثل هذه الشجاعة.

صرخ العمّ مذعورًا خوفًا على حياته. كانت السيدة تحاول تهدئة زوجها. نظر الضابط إليه بطرف عينه ثم جلس في السيارة. وعلى الرغم من ارتجافه الشديد، ظلّ العمّ واقفًا بصعوبة. وكانت السيدة تنظر إليه بعينين مفعمتين بالشفقة. وما إن همّت بالدخول إلى داخل المنزل حتى جلست فجأة على الكرسي الخشبي في الشرفة. أخذت تسعل سعالًا متواصلًا، وبدأت تعاني صعوبةً في التنفّس. خرجت الابنة

الكبرى مسرعة, وأخذت ترشّ شيئًا في فم أمّها لبرهة. هدأت حالتها قليلًا, ثم أدخلتها إلى الداخل ببطء وهي تسندها بكتفها.

كان العمّ شاهدًا على هذا المشهد المفاجئ كلّه, ولم يستعد وعيه إلا حين صرخ الحارس:

"ماذا تنظر؟ السيدة تكاد تختنق... اخرج من هنا!"

فانطلق مسرعًا قبل أن تهوي العصا على ظهره. اجتاحه شعورٌ عميق بالفراغ, وكان مرهقًا أيضًا. في الحقيقة لم يكن الإرهاق جسديًا بقدر ما كان نفسيًا؛ فعندما يرهق العقل يفقد حماسه, ويصيب الوهن الجسد كذلك.

كان الوقت منتصف النهار. بدأ رحلته عائدًا إلى موطنه ببطء. لم يكن قادرًا على الطيران, ومع ذلك ظلّ يحاول. لم يعد له ملجأٌ سوى عشه, ولن يجد السلام في أي مكانٍ آخر على وجه الأرض.

كان أبناء أخيه جالسين على الأشجار غارقين في التفكير, وما إن رأوه حتى تقدّموا نحوه. كانوا قد خرجوا بحثًا عن مكانٍ آخر للمأوى في الجوار, لكنهم لم يجدوا مكانًا

مناسبًا. فقد استولى الإنسان على كل شبرٍ من الأرض، والأشجار والغابات قد قُطعت تمامًا، لذلك لم يعد تغيير المكان ممكنًا. والأفضل أن يغيّروا أسلوب حياتهم، وإلا فإن تناقص أعدادهم تدريجيًا سيؤدي حتمًا إلى الانقراض، فالبيئة نفسها لن تسمح لهم بالبقاء.

أعجبه هذا الرأي ووجده مقبولًا. بدأت مشاعر الحزن والإحباط التي كانت تسيطر عليه تتلاشى تدريجيًا من أعماقه، كما يتبدّد ضباب الشتاء مع أولى خيوط الشمس. نعم، لن يغادروا هذا المكان، سيواصلون العيش هنا، ولكن بطريقةٍ مختلفة.

ثم رفع العمّ رأسه وقال:

"لم يعد هناك مكانٌ لبناء بيت من الأحلام، لذلك فلنترك فكرة الرحيل، ولنغيّر أنفسنا بدلًا من ذلك."

تحمّس أبناء أخيه قائلين:

"نعم، نعم! علينا أن نتعلّم أساليب جديدة للحياة يا عمّ!"

فالشباب بطبعهم يميلون إلى المغامرة ويؤمنون بالأحلام الرومانسية.

نظر الصغار إلى وجهه بترقّب, وما إن سمعوا كلامه حتى غمرهم حماسٌ لا حـدود له:

"سيكون الأمر رائعًا! الناس يعيشون على أنواعٍ كثيرة من الطعام!"

لكن الإخوة قالوا بقلق:

"لا, هذا مستحيل. لم نكن هكذا من قبل. لا تستهينوا بالأمر."

تقدّمت الفتاة وقالت:

"العمّ على حق. هل لدينا خيارٌ آخر؟ لن نجد حلًا أفضل من هذا."

قال الآخرون ببرود:

"ما هو إذن؟ دعونا نسمع."

رفعت الفتاة رأسها وأشارت نحو فندقٍ قريب وقالت:

"ألا تـرون أن المدينـة مليئـة بالفنـادق؟ هنـاك تُطهـى أنـواع كثيـرة مـن الطعـام, ويُطهى السمكُ على الدوام. يأكل الناس, ثـم يلقـون مـا يتبقّـى مـن الطعـام فـي صناديق القمامة. سنأكل منها, وسـنعيش علـى سـطح قاعـة السـينما. إنـه سـطحٌ جميل مائل بلونٍ أحمر, ونادرًا ما يصعد إليه الناس."

تقدّم العمّ وقال:

"الغابات والمستنقعات تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى أراضٍ سكنية للناس, لذلك سنلجأ إلى الأسطح المهجورة للمباني العالية, وسنأكل من صناديق القمامة. فهل أنتم قادرون على ذلك؟"

أجاب الإخوة بفتور:

"نعم."

أما أبناء الأخ فهتفوا معًا بحماسة:

"بالطبع نستطيع!"

ومنذ ذلك اليوم أصبحوا (سوهوريا هارغيلا) طيور اللقلق المدنيّة بالكامل. ومع أنهم عاشوا في المدينة زمنًا طويلًا, ظلّت آثار حياتهم القديمة عالقةً بهم, فلم يستطيعوا أن يصبحوا أهلَ مدينةٍ تمامًا.

لقد تغيّرت حياتهم, وتركوا عادات أجدادهم. كانوا يقضون الليل على أسطح المباني, ثم يطيرون مع الفجر إلى الأسفل. لم يعد لهم أيّ صلةٍ بالمستنقع. كانوا يأكلون بقايا الطعام من صناديق القمامة, ثم يعودون إلى السطح وينكمشون جالسين هناك.

وفي أثناء ذلك حدثت أمورٌ كثيرة. كانت الليالي تمرّ عليهم بلا نوم. كانوا يتذكّرون عشّهم الجميل المستدير, وكأنهم ما زالوا ينامون فيه في هدوء. وأحيانًا كانوا ينزلقون ببطءٍ على السطح الأحمر المائل حتى يصلوا إلى الأرض, يتقلّبون ثم يستيقظون.

وأحيانًا, وهم في نعاسهم, كانوا يبحثون بأجنحتهم عن أغصان الأشجار وأوراقها... لكن السطح الأحمر الجميل لم يكن قادرًا على تلبية هذه الحاجة.

كأنهم يبتعدون شيئًا فشيئًا عن الطبيعة. لم يعد هناك داعٍ لمراقبة الأسماك أو الأفاعي أو الضفادع .تلاشت لذّة الصيد, ولم يعد هناك عملٌ يتطلّب صبرًا أو مهارة. حياةٌ هادئة خالية من الاضطراب. لعلّ هذا ما يُسمّى بالحداثة, غير أنّ عواقبها ما تزال غامضةً لديهم. ولكن الزمان سيكشف المسار... فمن ذا الذي يفوقه قوّةً في هذا العالم.

وخلال وقتٍ قصير, قام الضابط بردم المستنقع بالتراب, وقُطعت شجرة الكَدَم, وبُني بيتٌ جميل رائع المنظر. وكان العمّ يراقب كلّ ذلك من بعيد. وفي أحد الأيام رأى الضابط يأتي إلى البيت الجديد مع أسرته وحيواناته الأليفة.

وكانا يلتقيان أحيانًا في الطريق, فينظر الضابط إليه بعينين غاضبتين. لم يعد العمّ ينحني له كما كان يفعل من قبل, ولم يعد يتحرّك بحيوية. كانت الحياة تمضي ببطءٍ ثقيل. وأحيانًا كان يذهب إلى صناديق القمامة ليقتات منها, لكن ذلك كان نادرًا. لم يكن يريد أن يكون أسيرًا لقواعد صنعها بنفسه. كان الحنين يجرّه إلى الماء وإلى التجوّل في المستنقع كما كان يفعل, غير أن أحلام الماضي تتلاشى تدريجيًا.

ومع ذلك ظلّ يشعر برباطٍ خفي يشدّه إلى ذلك المكان, فكان يتجوّل في الطرق المزدحمة التي منحت حياته يومًا شعورًا بالاكتمال. كان يخفض رأسه وكأنه يمارس الصيد من جديد, ويسير قرب بيت الضابط كأنه يقوم بعملٍ معتاد.

وفي مساء أحد الأيام كان يفعل الشيء نفسه, وفجأة توقّف عندما سمع صرخات بكاء من بيت الضابط. كانت صرخاتٍ موجعة للضابط وأطفاله.

ماذا حدث؟

وقف عند البوابة محاولًا أن يفهم. نعم! كان الضابط يصرخ:

"واحسرتاه... لقد فقدت كلّ شيء... كلّ شيء!"

ارتعش العم فجأة. لا بدّ أن مصيبةً قد حلّت بهم...

وقال في نفسه: الآن سيفهم معنى الألم والمعاناة...

ثم اقترب ببطءٍ من البوابة الحديدية الكبيرة. كانت مفتوحة, وكان الحارس جالسًا في زاوية الفناء مكتئبًا. دخل دون أن ينتبه إليه الحارس. كانت أعواد البخور وزهور القطيفة متناثرةً في أنحاء الفناء. وفي زاويةٍ أخرى, كان بعض الرجال يقفون حول النار, يستدفئون في مساءٍ بارد من أواخرأكتوبر.

في الداخل كان الضابط يبكي بلا توقف. وما إن رآه حتى اشتدّ بكاؤه:

"لقد جئت؟ تعال... تعال... لقد فقدت كلّ شيء. حاولت كثيرًا, لكنني لم أستطع إنقاذ زوجتي."

كان جسد العمّ يرتجف, وكأن قلبه يهمس له:

"انظر... انظر إلى حال هذا المتسلّط القوي! كم يبدو عاجزًا الآن! اضحك... اضحك ملء قلبك... انتقم لنفسك... فهذا هو الوقت المناسب."

كان قلبه يخفق بسرعة، وتدفّقت إلى ذهنه صورٌ قديمة: عيونُ طفله الذي اختطفه بعض الصبية المشاغبين من عشه منذ زمنٍ بعيد، ونظرات الأمّ المكلومة التي أنهكها الحزن... لكنه لم يعد قادرًا على التمييز بين عيني الأمّ وعيني الطفل. كاد رأسه يدور، وشعر جسده بثقلٍ غريب، حتى إنه نسي أن يتنفس.

وفي لحظةٍ حاسمة اتخذ قراره. كبح مشاعر الحقد والرغبة في الانتقام، وتقدّم ببطء، ووقف إلى جانب الضابط المفجوع، رافعًا نظره إلى السماء كأنه يناجي الرب.

قال الضابط بصوتٍ مكسور:

"ألم أدعُ الرب؟ لقد توسّلت إليه كثيرًا: لا تجعل أطفالي أيتامًا... لا تفعل هذا بي الآن يا رب... أقسم بك... أنا..."

وقبل أن يُكمل كلامه، سأله العم:

"وماذا أجاب؟"

قال الضابط بحسرة:

"آه... لم يستجب... لم يُبالِ بشيء..."

ثم جلس على الكرسي المصنوع من القصب وأخفى وجهه بيديه. كان الضابط يواجه امتحانًا قاسيًا من الحياة قد أنهكه الحزن، وأضعف جسده، وأذاب قلبه من شدّة الألم.

أراد العمّ أن يواسي الضابط بكلمات التعاطف، وقال في نفسه:

"الآن هو الوقت لأربّت على كتف الضابط برفق، وأسانده، وأساعده على أن يستريح على فراشه."

اقترب منه ببطءٍ، و امتد منقاراه النحيلان نحو جسد الرجل الضخم، و حاول العمّ (اللقلق العجوز) أن يحتضنه بجناحيه، لكنه عجز عن أن يرفعه.

لم يستطع أن يبلغ إليه...

ولم يستطع أن ينهضه.

عن الكاتبة وظروف كتابة القصة

تُعدّ قصة "بيت الرغبة" نصًا سرديًا يتأمّل في علاقة الإنسان بالطبيعة, ويُبرز معاناة الكائنات الهشّة في ظلّ التمدّد العمراني. وهي من تأليف الكاتبة نجمة مُخرْجي, الأستاذة المتقاعدة بجامعة كوتون في مدينة غواهاتي بولاية آسام, عُرفت بإبداعها الساخر "بوب آساميا" الذي يجمع بين النقد الاجتماعي والخيال الأدبي.

انبثقت فكرة القصة من تجربة واقعية عاشتها الكاتبة أثناء تنقّلها اليومي إلى الجامعة, حيث كانت تمرّ بمستنقع طبيعي موطنا لطيور الهارغيلا (اللقلق الكبير). غير أنّ هذا المشهد أخذ يتغيّر تدريجيًا مع قطع الأشجار وردم المستنقع وإقامة مبانٍ حديثة في مكانه.

ومع اختفاء هـذا المـوطن الطبيعـي، اضـطرت الطيـور إلـى الرحيـل، فلجـأت إلـى أسطح المباني محاولةً التكيّف مع بيئة حضرية غريبة عنها. وقد خلّف هذا التحوّل أثرًا عميقًا في نفس الكاتبة، فكان دافعًا لكتابة القصة التـي تجسّـد صـراع الكائنـات الضـعيفة مـع هيمنـة الإنسـان، وتطـرح تسـاؤلات حـول معنـى التقـدّم وحـدود السيطرة على الطبيعة.

نُشرت القصة لأول مرة سنة ٢٠٠١ في مجلة "آسام باني" الآسامية

..... ***** .....